

أبو الحسن الندوي

غارة التتار على العالم الإسلامي

الاسلام  
معبزة  
وظهور

المختار الإسلامي  
للطباعة والنشر والتوزيع  
ص . ب ١٧٠٧ - القاهرة

BP 165

N22

1979

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

---

الطبعة الثانية  
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

## غارة التتار واسبابها الحقيقية في ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف ان السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك انه امر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما ارسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله ايضا ، فاشتعل جنكيز خان غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى

---

(1) فصل كتبه المؤلف فى « اردو » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ونقل اكثره الاستاذ سعيد الاعظمى الى العربية .

الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا ان السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التي أصيب بها العالم الاسلامي ، ليس ان يقترب ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجئ العالم الاسلامي ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء - التي لم تكن تتوقعها ولا تستحقها - لمجرد ان يخطئ فرد من افرادها .

هذا وكانت الفارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الاسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت امراض واوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى ، والانحراف الإداري ، وفي سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة في مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى أشدت الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل :

« ان العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ،

اذا حملنا نبراس القرآن في يدنا ، واستعرضنا اوضاع المسلمين الخلقية والدينية ، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقق لنا كالشمس في رابعة النهار ، ان هذه الحادثة المشؤمة لم تكن مفاجأة ، وانما هناك أسباب أكثر عمقا واصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكي نبحث عن هذه الأسباب العميقة الاصلية يجب ان نتأخر الى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس باجمال اوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع في ذلك العصر .

### اوضاع مركز الخلافة والعالم العربي في هذا العصر :

ان الملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين اولاده وافراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلت اليهم ، شأن كثير من

فلما فرغت الاطفال والميتات غلب القوى الضعيف  
فذبحة واكله (١) .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله في الارض ،  
وظلت الانذارات السماوية ، والاحداث الجسام تحذر  
الناس ، وكانت كفيلا بان تبعث الناس على التوبة والانابة  
الى الله ، واصلاح احوالهم « وحدثت في نفس هذه  
السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام الى الجزيرة  
والروم والعراق .. واخربت محال كثيرة من طرابلس  
ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ،  
ومات بها وبقرائها ثلاثون الفا تحت الردم .. ومات  
أمم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة  
الزمان » : انه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو  
من الف الف ومائة الف انسان قتلا تحتها (٢) والله  
أعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر في مركز الخلافة ( دار  
السلام بغداد ) ، وسيطرت عليه مظاهر الابهة الملوكية  
والسلطان الاعمى ، وتفطلت نفوذ الخدم والحشم في  
قصور الخلفاء ، وبلفت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا  
يمكن ان تصور ما كان يمتلكه الخدم والماليك الذين  
كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفى ان نذكر على سبيل المثال ، ان علاء الدين  
الطبرسي الظاهري ، وهو ممن اشتراهم الخليفة  
الظاهر ، كان يحصل له من املاكه التي استجدها نحو  
ثلاث مائة الف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن  
ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين ابيك الدويدار  
المستنصري ، وقد ملك جزيل الاموال من العين ،  
والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ،  
ويتعذر وصف ما انفقه من قناطير مقنطرة من الذهب  
والفضة ، والجواهر التي جهز بها اولاده وبناته في  
ليالي الزفاف ، كما ان الفراش الصلاح عبد الفنى بن  
فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار  
الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ،  
بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر  
وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في اكبر  
جامعة اسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم اكثر من  
١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد ان ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم  
للشرايى على مجد الدين ابيك المستنصري ، المعروف  
بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ  
صاحب الموصل ، وان ٣٠٠٠ دينار اعطاها الشرايى  
للأشخاص الثلاثة الذين اتوا بطائر من الموصل .

ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ،  
والتظاهر بالفخفة والابهة الملوكية يجب ان نعرف ان

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .

(٢) ايضا ص ٢٧ .

وفي نفس هذه الأيام كان التتر يعيشون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارهم شاخصة الى بغداد ، أكبر مركز إسلامي في ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتي :

« استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تفسير كسوة الكعبة الشريفة ، التي قد جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة الى ٢١ يوماً ، فتشام به الناس .

في سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته الى أكثر من ٤٦ سنة ، وهي مدة طويلة لم تيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد في تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً ، فخرّب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان

الموكب التي كانت تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، وتستطيع أن تقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمر الى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر في « المسجد المسبوك » أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا الى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبي ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي ، والانصراف الى الملاهي والقيان والتكاثر في الأموال » (٢) .

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ .

(٢) استفدنا في هذا الفصل من مقال « عصر الشرايين ببغداد » للاستاذ ناجي معروف المنشور في مجلة « الاقلام » عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات في أوقاتها الا ان المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفي سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمي ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين اهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على ان دبر على الاسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أشجع منه منذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتاري يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن اقطاعهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الاسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي » (٢) .

فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطها ، وأطلق بعض المكوس التي جدها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة فظل الفتوة في البلاد جميعها ، الا يلبس منه سراويل يدعى اليه ، وليس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من انه هو الذي اطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك (١) .

توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلوات ، محسنا الى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه - مع الأسف - لم يجد فرصة للتنظيم والاصلاح ، وخلفه ولده المستعصم بالله في سنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وانابة لم ينقل عنه انه عصى الله بغمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من

« واهتموا بالانقذاعات والمكاسب ، واهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » (١) .

### القسم الشرقي من المملكة الإسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية في آخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالم الإسلامي كله خاضعا للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه ( ٥٩٦ - ٦١٧ هـ ) أعظم ملوك الأسرة طموحا ، وأعلامه همة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم في عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » في كتابه « جنكيز خان » فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك في قلب البلاد الإسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد

(١) مقال الاستاذ ناجي معروف « عصر الشرايبي ببغداد »  
« الاقلام » ع محرم ١٣٨٦ هـ .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على اصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه الا من رزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقريّة ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا في وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع في مثل هذه الحال الا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ .

ولقد تكرر في التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم في مملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت الى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين الحكومة وبين نهايتها الاليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولا عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على اصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة كما كان عدد منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ :



من ثغور الهند الى بغداد ، ومن بحر الخوارزم ( آرال ) الى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الاسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من ممالك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر الى مكانته ، وبالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، ان الخليفة في بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى ، شأن البابوات في رومة » ( ١ ) .

أما المؤرخون العرب ، فانهم لا يسيرون الى موضع ضعف وعيب شخصى كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل أنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته في القضاء على الحكومات الاسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت في هذا الجزء الشرقى الواسع أنه اضطر السلاجقة الى التأخر والأنسحاب الى آخر حدودهم في جانب ، كما أنه ظل يحارب الفُوريين في الشرق والجنوب في جانب آخر ، واضطروهم الى الانحصار في جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال في ايران وتركستان ، قد أئختنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى

( ١ ) جنكيزخان ص ١٤٧ .

يسود المدن والاقاليم الخصبة الفنية وعلى مشاهد أهلها في كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الاقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع في الصناعات ، وادوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الفنى والجدة والرفاهية والأنتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانىها الحضارة والمجتمع ، في كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسراى ، ورجال الحكومة ، وأن مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، أنه يقول :

« أن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالفناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز . لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان الممالك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ،

بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » (١) نحو الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، ايران وتركستان حتى وصلوا الى بغداد التى اسلفنا ذكرها ، واخيرا قاموا بتدميرها وابادة اهلها سنة ٦٥٦ هـ ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب » (٢)

ان الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الاسباب ، هو ان جنكيز خان بعث الى خوارزم شاه رسولا يقول له : انك تحكم رقعة عريضة كما اننى املك مملكة واسعة ، فاذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون اموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الاسلامى ذلك اليوم المشؤوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك

(١) مبدا مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥ هـ ، واول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦ هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤ هـ ، فقام ابنائه واحفاده بتحقيق غاياته التى ارادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاء حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية واميرها .

(٢) سورة الانفال ٢٥ .

ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والاشراف على السرائى للخصيان » (١) .

### خطا الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطا الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافاة الالهى ، وذلك انهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الاسلام الى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالما مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الاسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر ان يعنوا بايجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الانسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد اقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم .

### زحف التتار نحو العالم الاسلامى :

فى نفس هذه الاحوال والزمان تقدم التتار بادىء

(١) جنكيز خان ص ١٤٢ .

المؤرخ الغربي « هيرلد ليمب » ويصدق تماما ما جاء في التاريخ الاسلامي ، انه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التي اقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب في ذلك ان قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » الى الغرب ، فلما وصلت الى « اترار » تعرض لها حاكمها الذي كان يدعى باينل جق واسر رجالها ، واخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال ان هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما ان وصل الخبر الى خوارزم شاه حتى امره بقتل التجار كلهم دون ان يفكر في هذه القضية ، ويتأني في اصدار الامر ، ونفذ امره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، ارسل سفراء الى خوارزم شاه يشكو اليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهر خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وامر باحراق لحي الباقين ، الذين رجعوا الى جنكيز خان وقصوا عليه القصة وفور سماع هذه القصة سعد جنكيز خان على جبل في « صحراء الجوبي » ليفكر في القضية ، لان قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر . كان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول في مثل هذه الامور .

واعلن جنكيز خان قائلا : « اذا كانت السمائم

لا تحتل وجود شمسين ، فان الارض كذلك لا تحتل وجود ملكين » (١) .

### الجزء الشرقي للعالم الاسلامي بين النار والدمار :

وقد ابتدا التتار ببخارى واتوا عليها من كل جانب ، فدمروها حتى عادت كومة من تراب ، ثم توجهوا الى سمرقند واحرقوها وابادوا اهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الاسلامي كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، اما خوارزم شاه الذي كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الاسلامي واقوى الملوك في عصره ، فكان يعيش في خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتمقبونه حتى توفي في جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة الى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم في هذا الجزء الشرقي ، وقد دخل رعب التتار في قلوب المسلمين ، الى حد ان احد التتار دخل بعض الأحيان في سكة من سلك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم كلهم واتى على آخرهم دون ان يتجرا احد منهم لمقاومته .

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

و ذات مرة دخلت امرأة تاتارية بيتا متزينة بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف أحد المسجونين الذى كان معها انها امرأة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم آتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به (١) .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهورين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهمامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : « اذا قيل لك أن التتار انهمزوا فلا تصدق » فكل بلاد او دولة توجهوا اليها عرف انها ابيدت وخربت ، ولم يبق فيها شئ من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التدمير والابادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شك أن العالم الاسلامى كله ولاسيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة ابيه ، أن المؤرخ يشغل

(١) من أراد التفصيل فيرجع الى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبتانى ج ٦ مادة « تتر » .

بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لآبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرب قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتأله النفسى ، حينما وصل الى ذكر حادث التتار ، انه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا انى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رايت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، ألي أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا بأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فأنا لله وأنا

اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،  
لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت  
في البلاد كالسحاب استدبرته الريح « (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذي شهد  
هذه الواقعة بعينه وما دار في مولده « الري » وموطنه  
« همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى - خذلهم الله ودمرهم -  
سنة ٦١٨ هـ على بلاد الاسلام ، لا يعرف نظير لما قام  
به هؤلاء الوحوش من الفتنة والافساد ، والقتل والهدم  
والاحراق وما ظهر من اولئك الملاحين من فظائع تقشعر  
منها الجلود في اى عصر من عصور التاريخ ، لا في  
الاسلام ولا في الجاهلية ، فقد قتلوا واسروا في « ري »  
وحدها التى هى مولدى اكثر من سبع مائة ألف  
مسلم ، ان الفتنة التى اثاروها في العالم الاسلامى ،  
والمصيبة التى انزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات  
ان تصورها ، وهذه الحادثة اغنى من ان تشرح  
للناس .

وعياذا بالله ، اذا لم تتحرك حمية الاسلام وغيرته  
في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم  
مسؤولون عن الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم :  
« الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » واذا لم

(١) التامل لابن الاثير ج ١٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

تنبعث فيهم اريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على  
كلمة واحدة ، وينقادوا لما امرهم الله به في قوله :  
« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في  
سبيل الله » واذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال  
والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فان ذلك كله يدل على  
ان المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم  
بلاد الاسلام في احضان الكفر ، واخشى ان المسلمين  
الذين كانوا لا يحملون الا الاسم ، سيفقدون الاسم  
والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به « (١) .

### صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الاسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة  
التتارية ، وانما العالم المتمدن كله كان متوجلا من هذه  
الفارة ، وقد تفشى الذعر والخوف في الامكنة التى لم  
يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » في كتابه  
الشهير « تاريخ انحطاط رومة » :

« حينما اطلع سكان السويد على اخبار غارة  
التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر  
والخوف ما منعهم عن الخروج الى سواحل انجلترا  
لصيد الاسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

(١) مرصاد العباد ( المخطوط ، المحفوظ في مكتبة ندوة العلماء )

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط  
للكيمبرج » بذكر صدام المغول الشديد الذي كان  
سببه جنكيز خان بما يلي :

« لم يكن في وسع الانسان أن يسد سيل المغول ،  
فقد تغلبوا على جميع اخطار الصحارى والغابات ، ولم  
يقف في وجههم أى شىء من الجبال والبحار ، وشدائد  
الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا  
يخافون أى خطر ولا مانع ، ولا كانت هناك قلعة ترد  
هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم ..  
نحن نواجه هنا في مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت  
بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية  
والوطنية ، التي كانت تشغل العقول في ذلك العصر ،  
وقضت عليها كما تقضى الساعة التي تنزل من  
السماء على كل ما تصيبه في الأرض ، وقد كانت هذه  
القضايا الوطنية والسياسية بالغة في عمقها الى حد  
لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه  
النازلة » .

« ان ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ،  
أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع  
البشرى ، يتبدى من جنكيز خان ، وينتهى الى حفيده  
قوبيلائى خان الذى بدت في عهده آثار الفرقة  
والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة ،

والحقيقة ان التاريخ لم يشهد الى الآن قوة تشبه قوة  
هؤلاء المغول » (١) .

### تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعدما خضبوا ارض  
العالم الاسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه في بغداد  
دار الخلافة الاسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في  
ذلك العصر بقيادة حفيده هولوكوخان ، ودمروها  
تدميرا ، ولاشك ان تفاصيل قتل المسلمين في بغداد  
وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه  
الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا  
آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ،  
يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، ولما  
انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت  
بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، الا الشاذ  
من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد  
سقط عليهم المطر فتفطرت صورهم ، واننتت من  
جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء  
الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء الى بلاد الشام ،  
فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع  
على الناس الفلاء والوباء والفناء » (٢) .

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص ١٤٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٣ .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكي :

« فأنزل ( هولاكو ) الخليفة ( المستعصم ) في خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماتل ليحضروا المقعد فخرجوا من بغداد ف ضربت اعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب اعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة ف ضرب اعناق الجميع ، ثم طلب اولاده ف ضرب اعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو ان هذا ان أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسي (١) وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل ان الخليفة غم في بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

(١) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوى في كتابه « أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسي » الذي نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسي مسؤولاً عن هذه الواقعة ، أنه يقول :

« ان مكيدة الطوسي السياسية التي نجحت أخيراً هي أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكي ، وقد كان هولاكو مأموراً من قبل أخيه منكوكا أن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

ان هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت الكتابة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيراً استشار هولاكو زملاءه ، وكانت الأقول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سني المعروف بحسام الدين الذي كان ملازماً لبلاطه بان =

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوماً ، ولم ينج الا من اختفى : وقيل ان هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، واكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان ، وأريقت الخمر في المساجد والجوامع ، ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان . . هذه ببغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله » (١) .

= هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة في مثل هذه الساعة أخفق في ارادته ، وأصيب ببلاء ، فانك أيها الملك اذا أبيت الا أن تفر ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك ان الملك ( منكوكا أن ) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسي وقال : « ماذا تقول عن مصيرنا اذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسي : ان الغارة على بغداد لا تؤول الا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو النجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسي : لقد قتل آلاف من الصحابة رضی الله عنهم ولم يظهر نساد ، واذا كان هذا مما يخص العباسيين ، فانظر الى طاهر الذي قاتل الامين لما أمره المؤمنون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله اولاده وغلماينه ، وقتل المنتصر والمتضد الامراء والفلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ - ١١٥ .

تجمعن التراب في نخل بطحاء بالدماء ، ان وجه هذا  
النهر تغير وامتعق لونه من هذه الواقعة الهائلة وبدت  
التجاعيد في هذا الوجه ، ان النياحة لا تجدر على تراب  
هؤلاء الشهداء ، فان اقل جزاء يستحقونه هي جنة  
الفردوس ، ولكن الواجب الديني ، وصلة الحب  
والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش في لوعة  
الفراق « (١) » .

### التتار في الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ،  
وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ، ثم تقدموا  
الى دمشق واستولوا عليها في شهر جمادى الاولى  
سنة ٦٥٨ هـ .

### وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم  
الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها وبيلات  
التتار ، وقد كان ملك مصر المظفر سيف الدين قطز  
قد تفرس ان التتار يزحفون الى مصر بعد الشام ،  
وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى ان  
يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم في نفس  
الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر

وقد ظلت بغداد ، على علاقتها ومواضع ضعفها أكبر  
مدينة للعالم الاسلامي ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد  
العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين  
لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون  
كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين  
سعدى (٢) رحمه الله ، الذي اقام في بغداد كطالب ،  
وشهد بهاءها وجمالها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب  
المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكوم في ذلك الوقت ،  
نقل فيما يلي ترجمة لعدة أبيات منها يقول :

« ان للسماء كل الحق ان تمطر دما على الارض  
لما اصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ،  
اذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة  
والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة  
بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى انسان ابدا ان  
حوادث الدهر تأتي بما أتت به اليوم ، افتح بصرك  
يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر ان الملوك دفنوا  
تحت التراب ، واحتل محلهم المفلول والخابان ،  
أريقت دماء ابناء عى النبي صلى الله عليه وسلم على  
تلك الارض ، التي كانت الملوك الكبار يخرون عليها  
ركعا سجدا ، وأصبحت دجلة تزيد بدم أهلها ، وهي

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسي ، صاحب كتابي « كلستان »  
« وبوستان » الخالدين في المكتبة العالمية .

(١) كليات سعدى .



السلطين والملوك ، وبدأ الاسلام يتسرب في نفوس اعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، ان خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين امام الاسلام من اغرب الوقائع والأحداث في التاريخ ، فان هجوم التتر على العالم الاسلامي كالجراد المنتشر ، واخضاع العالم الاسلامي كله ، ليس من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر ، فان عالم الاسلام في القرن السابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التي تلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتر ، ذلك الشعب القوي الأبى الذي نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش ان هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين ، واعتنق دينهم في أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذي فقد كثيرا من سلطانه السياسي والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار في نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه في هذا الصدد في كتابه المشهور Preaching of Islam « الدعوة الى الاسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من ان ينهض الاسلام من تحت انقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعائه ان يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك الى نشاط الدعوة من المسلمين ، الذين كانوا

الاسلامية ، والتتار في عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصريون فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون وله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم » (١) .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « اذا قيل لك ان التتار انهزموا فلا تصدق » .

### انتشار الاسلام في التتار :

وقبل ان ينحرف العالم الاسلامي مع هذا السيل الجارف العنيد ، وينطمس معالمه وملامحه ، ( كما كان المشاهد للموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين ) بدأت دعوة الاسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب ، ويتحقق على أيدي دعاة الاسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين ،  
كانا يحاولان احراز قصب السبق في ذلك المضمار ،  
وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ،  
وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية  
والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب  
اولئك الفاتحين القساء ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب  
اهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في  
جميع الأقطار والاقاليم « (١) .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسر ان منافسة الاسلام  
في مستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية ،  
كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، اذ ان  
المسلمين كانوا قد قاسوا اكثر من غيرهم من ذلك  
الاضطراب الذي صحب غارات المغول ، وان معظم هذه  
المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية  
وكعبة العلم في الاسلام في القارة الآسيوية ، قد اصبح  
معظمها اطلالا دارسة ، حتى ان الفقهاء وائمة الدين

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الاساتذة

الاتقياء ، كان نصيبهم القتل او الاسر (١) ، وكان من  
بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو  
الاديان كافة من يظهر الكراهية للدين الاسلامي على  
درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من  
يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الاسلام ، ثم  
سار على نهجه قوبلائي ، فعين مكافآت لكل من دل  
على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين  
اضطهدا عنيفا دام سبع سنين ، حتى ان كثيرا من  
المعدين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع  
الثروة ، واتهم الأرقاء مواليتهم بهذه التهمة لكي  
يحصلوا على حريتهم (٢) وقد عانى المسلمون اقصى  
ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ -  
١٢٤٨ م) .

« وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) رابع

(٢٤١) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء ،  
ان وانضى النخيل من اهالي الصين ، كانوا اذا عرضوا اشياحا ،  
اظهروا البشر والحيور في صلف وأعجاب بعرض صورة تمثل رجلا  
مسنا ذا لحية بيضاء يجر حصان قد ربط ذيله بريقة هذا الرجل ،  
وانما هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان  
المغول في معاملتهم للمسلمين .

Howorth, vol. i. p. 159.

Howorth, vol. i. p. 165.

Deguignes, vol. III p. 265.

واصبح التتر يعتقدون الاسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا في ظرف مائة سنة في دين الله ، وقد سرد إرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، أنه يحكى قصة شيوع الاسلام في فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذى كان يحكم سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة ، فيقول :

« وكان بركة خان ( ١٢٥٦ - ١٢٦٧ م ) اول من اسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م (١) ، وقد قيل في سبب اسلامه انه تلاقى يوما مع عير للتجار آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام ، فشرحها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له ، وقد كاشف أصفر أخوته اول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الاسلام ، وحب اليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» (٢) .

« وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس ( ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م ) سلطان المماليك في

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدى . وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة .  
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ( أبو الفارز ج ٢ - ص ١٨١ ) .

إليخانات المغول في فارس ، المسلمين في بلاده ، وصر فؤم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه (١) ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة (٢) آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها في مواطء أقدامهم » (٢) .

ان هذا الحدث مشار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية في بطون التاريخ ، اتنا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وادخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الاسلام ، مع أن هذه المآثرة لا تقل أهمية عن أى مآثرة اسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الانسانية كلها ، الى أن يأذن الله لها بالفناء ، فانهم أنقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ان دولة جنكيزخان توزعت بعد وفاته الى أربعة فروع ، وبدأ الاسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ،

(١) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا .  
( Cahon p. 279 ) .

( ٢٤٢ ) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ .

« كان الاسلام اقل انتشارا في بلاد الفرس حيث أسس هولاء أسرة ايلخانات المغول ، ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاء مع القوات المسيحية في الشرق كملك ارمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانها في الدين ، كما تزوج ابنه اباقاخان ( ١٢٦٥ - ١٢٨١ م ) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق اباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام اظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرايا خادما ، وكان اخره تكودار أحمد (١) ، الذي اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتنقوا الاسلام في فارس ، وقد شب على المسيحية ، لأنه كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه (٢) ، « تعمد في صباه وتسمى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم » ، وأصبح مسلما ديناً ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب في أن يسمى محمد خان ، وبذل قصاره في تحويل كافة التتار الى دين محمد وعقائده ، وقد بعث تكودار أحمد نبأ إسلامه الى سلطان المماليك في مصر ( قلاوون ) في

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الاسلام .  
(٢) ( Hayton. Ramusio, Tom II p. 60, C. )

مصر ، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاء فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضون تحت لوائه ، فروا الى سورية ، حيث ييمون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس ، الذي افتعهم بصحة الدين الاسلامي واعتناقه (١) ، وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاء ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى بركة خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم الى مصر ، ان لكل امير واميرة في بلاط بركة خان اماما ومؤذنا خاصا ، وان الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس (٢) ، وكان من اثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الاسلام ديناً لهم « (٣) .

انه يحكى قصة انتشار الاسلام في ايلخانية الفرع الثاني لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

(١) المقریزی ( م ) ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقریزی ( م ) : ج ١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ( المقریزی ) ( م )

فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام،  
الذي هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام ، وأن لا يصدر  
عن اوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء وتسكين  
الدهماء ، وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الامن  
والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في  
مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لامر الله وشفقة على  
خلق الله ، فآلهنما الله تعالى اطفاء تلك النائرة ،  
ومسكين الفتن النائرة ، وعلام من أشار بذلك الرأي  
بما أرشدنا اليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء  
مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر  
الدواء ، واننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال  
للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا تبادر لها الا بعد  
تبيين الحق وتركيب المحجة ، وقوى عزمنا على  
ما رأيناه من دواعي الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به  
وجه النجاح ، اذ كان الشيخ قدوة العارفين ( كمال  
الدين عبد الرحمن ) ، الذي هو نعم العون لنا في أمور  
الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن ( لبي ) دعاه ، وقمعة  
على من أعرض عنه وعصاه ، وانتقدنا أقصى القضاة  
قطب ( الملة ) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما  
من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ،  
ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل  
نيتنا ، وبيننا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن  
الاسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى القى في قلوبنا أن  
تتبع الحق واهله . . فان تطلعت نفوس الى دليل

ذلك الكتاب : « الى سلطان مصر ، اما بعد ، فان الله  
سبحانه وتعالى بسابق عنايته وتور هدايته ، قد كان  
أرشدنا في عنقوان الصبا ويرعان الحدائة ، الى الاقرار  
بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه  
أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد  
في اوليائه الصالحين من عباده وبريته ( من يرد الله أن  
يهديه يشرح صدره للاسلام ) ( ١ ) ، فلم نزل نميل الى  
أعلاء كلمة الدين واصلاح أمور الاسلام والمسلمين ،  
الى أن أفضى الينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة  
الملك ، فأضفى علينا من جلايب الطافه ولطائفه ،  
ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ،  
وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينا ،  
فاجتمع عندنا في قوريليان

Qurilty

على الأصح ( المبارك - وهو المجتمع الذي تقدر فيه  
الآراء - جميع الأخوان والأولاد والأمراء الكبراء ،  
ومقدمو المساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على  
تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في انفاذ الجم  
الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من  
كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد  
بطشها ، الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم  
الأطواد ، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما  
تمخضت زبد عزائمهم ، واجتمعت أهواؤهم عليه ،

( ١ ) سورة ٦ : آية ١٢٥ .

وان من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول  
فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من  
الدماء الى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ،  
التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي  
كتبها تكودار أحمد الى سلطان المالك في مصر ، والتي  
يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد احفظ تكودار أحمد واضطهاده ، المغول  
الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم في  
الدين ، وشكوه الى قوبيلائي خان ، متهمين اياه بأنه  
خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت في وجهه ثورة  
على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله ، ثم خلفه  
على العرش ، وفي أثناء حكم أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م )  
القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على  
حين لم يكن بد من أن يلقي المسلمون الاضطهاد ،  
فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في  
القضاء والمالية ، وحرّم عليهم الظهور في بلاطه (١) .

= ( أغسطس سنة ١٢٨٢ م ) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب  
الدين شيرازي وأتابك بهلوان ، وقد رد كلاون على أيلخان المغول  
بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها ( ٣ ديسمبر سنة  
١٢٨٢ م ) ، وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندي ( ج ٧ ص ٢٢٧ -  
٢٤٢ ) .

De Guignes, vol. III p.p. 263 - 5.

(١)

تستحکم بسببه دواعی الاعتماد ، وحجة يثقون بها  
من بلوغ المراد ، فليظنوا الى ما ظهر من أمرنا مما  
أشتهر خبره ، وعم أثره ، فانا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء  
اعلام الدين وازهاره ، في ايراد كل أمر واصداره ،  
تقدما لنا موس الشرع الحمدي ، على مقتضى قانون  
العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما ، وادخلنا السرور على  
قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة  
واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما  
سلف ، وتقدمنا باصلاح أمور اوقاف المسلمين من  
المساجد والمشاهد ذو المدارس ، وعمارة بقاع الدين  
والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها  
القائمة الى مستحقيها بشروط وافقيها . . وأمرنا  
بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز فدها وتأمين سبلها ،  
وتيسير قوافلها ، وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين  
على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن  
قواعدهم « ، وهو يلتمس مخالفة سلطان مصر  
» بحيث تعمّر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة  
الثائرة ، وتعمد السيوف البائرة ، وتحل العامة أرض  
الهيونى ، وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل  
والهوان (١) \* .

(١) وصاب الحضرة ص ( ٢٣١ - ٢٢٤ ) .

\* وقد ورد هذا الكتاب أيضا في القلقشندي : صبح الأعشى  
ج ١ ص ٦٥ - ٦٨ ، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ =

التركي الصالح توزون (١) فان ملك التتار اسلم  
بجهوده ، كتب ابن كثير في وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان بن ارغون بن ايفان  
تولى بن جنكيزخان فاسلم ، واطهر الاسلام على يد  
الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار او اكثرهم في  
الاسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس  
الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة  
والخطبة ، وخرّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم  
الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ،  
وظهرت السبح والهيكل مع التتار والحمد لله  
وحده (٢) » .

يقول ارنولد :

« أن اخاه اولجايتو Aljaytu الذي خلفه في  
سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده (✽) Khudabandah  
كان على المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على

(١) يسميه ارنولد وغيره من المؤرخين « نورزيك » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ - ص ٢٤٠ .

(✽) ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ،  
وقد قيل خدا ( بضم الخاء ) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده  
ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خرينده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية  
الحمار وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام =

وقد ظل خلفاء تكودار احمد على وثنتيتهم ، حتى  
دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات  
وأعظمهم شأنًا في الدين الاسلامي في سنة ١٢٩٥ م ،  
وجعله دين الدولة الرسمي في فارس .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الاسلام،  
وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان ، وكان يسر  
كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون الى هذا الدين ،  
والذين كانوا قد وفدوا الى فارس في جماعات كبيرة  
منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد (١) ، ويظهر  
أن غازان كان بطبعه يميل الى تقليب نظره في المسائل  
الدينية ، لانه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في  
زمانه (٢) ، وقد أيد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ  
عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذي أخذ  
على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيره طوال  
عهده (٣) » .

ان ابن كثير نفسه ذكر اسلام غازان في وقائع  
٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه - ويؤيده في ذلك  
غيره من المؤرخين - أن الفضل في ذلك يرجع الى الأمير

1 p. 18 p. 148. (١)

G.:D. Ohsson, Tome IV p. 365. (٢)

(٣) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .

انه لم يلبث أن أسلم بعد موت امه ، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته (١) ، ويذكر

الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال ( الزمال صاحب الزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يريد هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير في إقليم كرمان هرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وکلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أو كلبا على عدوه .

وقال ابن الوردي ( تاريخ الوردي ص ٢٦٤ ) أن خربنده اسمه خدابنده ، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وآذربيجان وديار بكر .

Hammer-Purgstall . Geschichte Der Ilchanen vol. II p. 182

(١) لا يبعد أن تكون سبابا الاسلام قد قمن في تحويل المغول إلى الاسلام ، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ويمكن أن نأثي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية .

ابن بطوطة (١) ، ان سيرة ذلك الأمير ، كان لها اثر كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد في دولة ايلخانات فارس (٢)

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جفطائي بن جنكيزخان .

يقول أرتولد :

« وان ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره في امبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جفطائي ، لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل إلى الاسلام ، وقد ضيق جفطائي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجاني أن جفطائي هذا كان الد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللهم الا اذا

(١) ابن بطوطة - ص ٥٧ .

(٢) الدعوة إلى الاسلام - ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .



الاسلام بعد في نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية ( ولو ان صحة هذا التاريخ غير محققة ) ، لم يلبث ان طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين (١) ، على أننا لم نسمع من ظهور اول ملك مسلم في كاشغر الا بعد سنين قليلة ، وكان ضعف اسرة جغتائي قد اتاح لهذه المملكة ان تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين ان اسلام تغلق تيمور خان ( ١٣٤٧ - ١٣٦٣ م )

ملك كاشغر ، كان علي يد رجل من اهل الورع والتفوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الاراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن توثق ايديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم في غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضاً محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال : ان الكلب أغلى من أي فارسي ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أحسن من الكلب ، وأبخس ثمناً منه لو أننا لم نذن بالدين الحق » ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم اليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ،

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ - ص ٤٧ .

أريد بها التحقير والخط من شأنها (١) ، وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قراهورلاكو Qara-Hulagu حفيد جغتائي وخليفته ، ابنها على الاسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤ م مطالباً بعرش خاقانية جغتائي ، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلع ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه أي أثر بين المغول ، فاننا لو رجعنا في الواقع الى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل في دين أبيه (٢) ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته في سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وأنه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٣) ، الا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامي ، وأن من أسلموا في عهده ارتدوا الى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول في مملكة جغتائي الا في القرن التالي لاسلام مبارك خان ، ذلك على اثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حوالي سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل الى

(١) الجوزجاني ص ٢٨١ - ٢٩٧ .  
(٢) رشيد الدين ١٧٢ - ٤ ، ١٨٨ .  
(٣) أبو الغازی ج ٢ ص ١٥٩ .

وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الاسلام في  
غيرة وحماس ، انظر لهما قلب الامر حتى كاد يدوب  
كما يدوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة  
اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكني  
اذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن  
اهدى رعاياي الى الصراط المستقيم فلتمهني قليلا ،  
فاذا ما آلت الى مملكة اجدادي ، فعد الى » ، وذلك  
ان امبراطورية جغتائي انقسمت في ذلك الوقت الى  
امارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى  
نجم تغلق تيمور Tuqluq Timur في توحيد  
الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما  
كانت من قبل ، وفي هذه الاثناء كان الشيخ جمال الدين  
قد عاد الى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما  
اشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح  
تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس ان تذهب  
اليه وتقرئه مني السلام ، ولا تخش ان تذكره بوعد  
الذي قطعته لي » ولم يلبث رشيد الدين الاسنين قليلة  
حتى ذهب الى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش  
امبراطورية آباؤه ، تنفيذا لوصية ابيه ، ولكنه لم  
يستطع ان يظفر بالثول بين يدي الخان برغم ما بذله  
من جهود ، واخيرا لجأ الى هذه الحيلة الطريفة ، ففي  
ذات يوم اخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من  
فسطاط الخان ، فالتق ذلك الصوت نوم الخان واثار  
غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى

رشيد الدين رسالة ابيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده  
وقال : « حقا ! ما زلت اذكر ذلك منذ اعتليت عرش  
آبائي ، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم  
يحضر من قبل ، والآن فانت على الرحب والسعة » ،  
ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ،  
« وأشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام  
الكفر .. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق  
تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء  
واحدًا بعد واحد ، ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله  
جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح  
الوثنيون وعباد الأصنام (١) » .

أما الفرع الرابع الذي ينتمي الى اجتائي خان  
والذي برز فيه من الملوك والقاتحين أمثال منجوخان ،  
وقوبيلائي خان ، والذي كان يحكم الجزء الشرقي من  
امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه إرتولد :

« ولا بد ان يكون هناك كثير من أنصار النبي قد  
انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين  
في طي الخفاء لجذب الكفار الى حظيرة الاسلام ، ففي  
عهد اجتائي ( ١٢٢٩ - ١٢٤١ م ) قرأ عن اسلام بوذي  
يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من  
قبل المغول (٢) ، وفي عهد تيمور خان ( ١٢٢٣ -

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

C. D. Ohsson, vol. III 121.

(٢)

١٢٢٨ م ) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلاني  
( ١٢٥٧ - ١٢٩٤ م ) وأمير كان سو مسلما متحمسا  
كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا  
كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت أمرته الى اعتناق  
هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور  
وبذل الجهد في ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك  
بدينه الجديد ، فألقى به في غياهب السجن ، ولكنه  
لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة اهالي  
تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به « (١) .

وهكذا دخل هذا الشعب ( الذي دوخ العالم  
الاسلامي كله ، وداس اطرافه بأقدامه ونعال خيوله ،  
والذي لم تماسك امامه أى قوة ) في دين الله الاسلام  
في بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ،  
واضحة جلية ، ان الاسلام لا يزال يملك اكبر نفوذ ،  
ويتمتع بأغرب موهبة في تسخير الأرواح وكسب  
الأنصار والأصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا  
فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء  
والمجاهدين والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق  
واليقين ، وأدوا دورهم الثمين في حماية حمى الاسلام  
في ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٨ ( رشيد الدين ص ٦٠٠ -